فلسفة التربيـــة

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١١ —

« التربية مهمة دينية ورسالة مقدسة »
« هربارت »

« من يدر المدرسة يوجه مستقبل الأمة »
« بسمارك »

« أم المسائل فى مصر مسألة التربية والتعليم ، فلو أن كل مصرى وضع فى تشييدها لبنة لأقمنا للوطن صرحاً يبقى ما بقى الزمان »
« الملك فؤاد » (١)

١ — اليوم والغد

رأيت فيما سلف ضرورة الفلسفة للتربية ، وتبينت الكثير من تلك « الأصول العامة » التى تقيم عليها الأمم الديمقراطية الحديثة تربيتها الصالحة وتعليمها السليم . والحق أن ذلك كله لم يكن غير مقدمة عامة أحببت أن أمهد بها لنقد التربية والتعليم فى مصر وطننا المحبوب . فلعلك قد وعيت ما قدمتُ وتود صادقاً أن ترى إلى أى طريق نحن مسوقون ، وأين نحن من تلك الأصول وهاتيك الفروع . ولعلك تشعر معى أن مثل ذلك الموضوع خطير كل الخطورة ، ودقيق كل الدقة ، لأنه وحده بيت الداء ومناط الرجاء ، وأننا محتاجون فيه إلى كثير من الصراحة وسعة الصدر حتى نستطيع أن نشخص الداء على حقيقته ، ونقرر الدواء الناجع والعلاج الصحيح ! ثم لعلك ترى أننا اليوم فى عصر جديد يتطلب منا تربية خاصة تحقق الأمل فى توطيد الديمقراطية وصون الاستقلال ، وبعث المجد القديم ، وتزعم الشرق الحديث ، وإعلاء القومية إزاء مطامع الطامعين ، ومسايرة الحضارة جرياً وراء قفز المتقدمين ... ! أجل ، ولعلك قد استطعت أن تتبين أن نهضتنا الحديثة ما تزال مشوبة بضعف فى الخلق والتواء فى الشخصية ، وضيق فى العقل وانحلال فى الشعور ، وأننا قد أصبحنا مهددين بثورتين جارفتين وقانا الله شرهما : إحداهما ثورة المتعلمين العاطلين ، والأخرى ثورة الجاهلين القانعين ... ! أجل ؛ ولعلك قد استطعت أن تدرك أنه لا سبيل إلى تحقيق شىء من هذه المشروعات الاجتماعية الإصلاحية الكثيرة التى يقترحها المقترحون ، إلا إذا كوّنا أولئك « الرجال البواسل » الذين نستطيع أن نعهد إليهم حقاً بمباشرة تنفيذها ، لأن نفوسهم قد تهيأت بالفعل لها وآمنت بها ... وأن الدولة التى تنفق على التربية والتعليم كثيراً وتخصهما بأعظم عنايتها تحيط نهضتها بكل أسباب القوة والنجاح ، وتوفر على نفسها من الجهود والمشقات ، والأموال والاضطرابات ، مالا أول له ولا آخر (١) ...

لعلك إذن تعرف ذلك كله ، وتود حقاً أن تعلم أين نحن وإلى أين نسير ؛ وتعجب كل العجب من إغفال الأحزاب السياسية فى هذا البلد لقضية التربية والتعليم كجزء من برامجها لا يتجزأ ، وغفلة فى الإصلاح جوهرية لها فلسفتها المعقولة وحدودها المرسومة (٢) ، وكوسيلة لتحقيق الأمانى القومية تغنى عن التشريع المزعزع ، وتمهد لنتائج وأحوال مضمونة كل الضمان ومؤكدة كل التأكيد .. !

أجل ! ولعلك تعجب كذلك من ندرة البحوث التى يقدمها الكتاب والمحاضرون للرأى العام فيما بين الآن والآخر متعلقة بذلك الشأن ، ودائرة على الخصوص حول التجريح وإظهار العيوب ! ! كأنما الموضوع مقدس لا يجوز الاقتراب منه ! أو كأنما هو ضئيل الشأن فى حياتنا المادية والمعنوية فلا ضرورة للاهتمام به ! ! أو كأنما هو سر من أسرار الدولة لا داعى لإشراك الرأى العام فيه ! !

أجل ، ولعلك تقول معى الآن إن النهضات الكبرى التى

(١) من حديث لجلالته رحمه الله تشرف بسماعه منه الأستاذ المرصفى وورد فى أول كتاب « فى التربية والتعليم » للأستاذ

(١) فمثلاً نشر التعليم بين الطبقات الفقيرة يقلل فيها الجرائم والأمراض فتقل بالطبع نفقات المحاكم والمستشفيات والسجون ... ومثلاً بناء منازل صحية للفقراء قبل غرس مبادئ الصحة فيهم لا يؤدى إلى أكثر من استبدال بيت ببيت ! !

(٢) تحررت ألمانيا من بطش فرنسا عن طريق إصلاح مدارسها وانتصرت إنجلترا فى الحرب العظمى عن طريق ملاعبها ! !

ازدانت بها صفحات التاريخ لم تقم إلا على أساس من النقد الذى هدم البالى وأقام الجديد ، وأننا فى نهضتنا وظروفنا الحاضرة محتاجون كل الاحتياج إلى هذا النقد الحر النزيه ، وإلى سعة فى الصدر تسمح به وتشجعه وتقابله بالكثير من الهوادة والرفق ، وتصفح عما قد يتعرض له من خطأ وشطط ... !

قالوا وما زالوا يقولون : لنستر العيوب لنستر العيوب ! وأقول وما زلت أقول : وماذا بعد ستر العيوب ؟ وما جدوى السير فى طريق شائك نهايته تعسة إذا كانت القافلة التى تسير فيه هى قافلة الأمة ؟ ؟ على أنى لست أذهب في التشاؤم إلى هـذا الحد فأدعى أن تعليمنا شائك كله ونهايته تعسة كلها ؟ ! بل إنه لمن الخير أن أسجل بعداد الفخر أننا قد بدأنا نلمس الضعف منذ أعوام ونعمل على إصلاحه ، فراحت وزارتنا تطلب رأى الخبيرين ، وراح أحد وزرائنا يكتب بنفسه فى التعليم الثانوي ، وأقيمت بالفعل مدارس جديدة ، وأدخلت إصلاحات مهمة وخطيرة . هـذا إلى ما يُدرس الآن تمهيداً لاعتماده وتنفيذه... وتلك ولا ريب باكورة طيبة تذكر بالشكر لرجال المعارف ويرجى منها خير جزيل . وما دام الأمر كذلك فلا مندوحة لنا كرجال تربية من معاونة الوزارة فى مهمتها بتقديم آرائنا وتجاربنا وكل ما نملك من قول أو فعل يحقق للوطن أمانيه وينجيه من عيوبه وأمراضه ...

فترى ما هي هذه العيوب وتلك الأمراض ؟ كل منا يستطيع أن يذكر الكثير من ذكرياته كطالب ومن تجاربه كمعلم ، وكل منا يستطيع أن يقرر أن ماضينا كطلبة ملئ بألوان من التربية لاتتفق وتلك الأصول التى قدمناها في كثير ولا قليل ، ولا تصلح إلا لأن تكون ذكريات مرة فيها ما يضحك ويبكى ويؤلم ويؤسف[1] ، وكل منا يستطيع أن يقرر أن حاضره كمعلم مشوب بأساليب من النقص بعضها هين يسير وبعضها ثقيل عسير . ومن اشتغل منا « بالتعليم الحر » أو درسه عن كثب يستطيع أن يقدم للقراء قصة فيها من المآسى والفواجع ما يثير التقزز والاشمئزاز ويبعث على الأسف والرثاء[2] ؛ ولقد كنت أعد نفسى

(١) وحسبك أن تذكر هنا العصا والحبس وغيرها خصوصاً إذا كنت قد أمضيت صباك فى غير مدارس الحكومة

(٢) ولا وجود بالطبع لمثل هذه القصة فى الجميات المحترمة التى لاتبغى الربح بقدر ما تبغى خدمة الأمة . وقد شربت بنفسى الكأس المرة فى إحدى الجميات « الأخرى » وأطمع أن أعرض على القراء فى الفرصة المناسبة قطرات منها ليعلم من يريد أن يعلم أهي جمعية للدين ونبل الأخلاق أم هى عصابة لسلب المال عن طريق مستور !!

وأنا — أكتب مقدمتى للقراء — لمثل هذا النقد البرئ ، فوقعت فى يدى رسالة حديثة صغيرة بالانجليزية لأحد أساتذة المعهد[1] وهو الدكتور « جاكسون » ، تناول فيها بعض نواحى التربية فى مصر بالنقد الحصيف والاقتراح الصائب ، فأعجبت بها كل الاعجاب ، وشعرت أنها قد ذكرت الكثير مما كنت أريد وزادت عليه ، ولذلك لم أر بداً من تلخيصها والتعليق عليها وتقديمها لقراء العربية كنظرة عامة جادت بها قريحة انجليزى خيِّر خدم التربية فى مصر ودرسها عن كثب ، وأبى إلا أن يرد لهذه البلاد العزيزة فضلها عليه بشئ من النقد والإرشاد

فإلى اللقاء إذاً حيث نستعرض هذه النظرة ونتبعها بأخرى . وإلى اللقاء حيث أسمعك ما قد يصلنى من إجابات حضرات رجال التعليم من مفتشين ونظار ومعلمين على الأسئلة الآتية :

١ — ماهى أهم عيوب التربية المصرية فى العصر الحاضر ؟

٢ — وما هى الأغراض التى يجب أن تتوخاها التربيـة المصرية حتى تحقق للوطن أمانيه الجديدة ؟

٣ — وماذا يروقك فى ماضى التربية وحاضرها ؟[2]

« يتبع »

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

(١) معهد التربية

(٢) أكون شاكراً كل الشكر إذا تكرم حضرات رجال التربية بردود مختصرة على هذه الأسئلة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشا